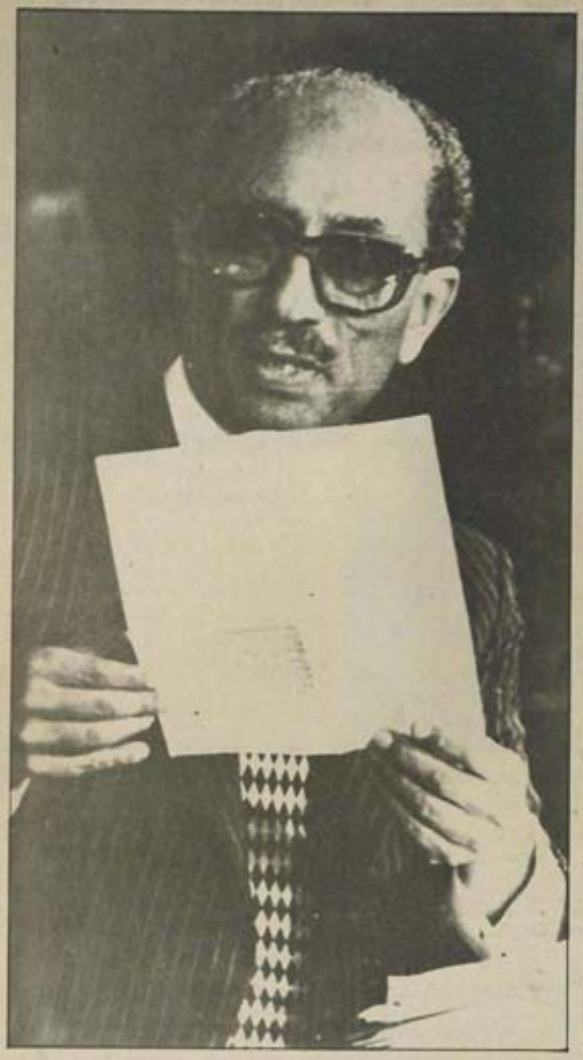

ما لم يقله الرئيس السادات في خطابه بمجلس الشعب

أنيس منصور

١

استهل الرئيس السادات عهده حاكما لمصر، بان أشعل النار في العار – يوم جمع « الأشرطة المسجلة » . وأحرقها في وزارة الداخلية . فقد كانت هذه الأشرطة تسجيلا لخصوصيات الناس ، تمهيدا لإذلالهم . هكذا كانت تفعل مراكز القوى . فقد كانت تجعل للحوائط اذانا ، وللتليفونات أيضا . وللسقوف عيونا . وكان على رأس مراكز القوى من يجد متعة شاذة في الاستماع إلى الأشرطة والأفلام . (علماء النفس يسمون هذا المرض : النظر من ثقب الباب على الناس في حالة ضعفهم) .

هاتان الصورتان لإعدام الأميرة السعودية والشاب الذى هربت معه . قد قام عليهما فيلم « موت أميرة » الذى شاهده الرئيس السادات « وتقزز » لما فيه من تهجم على الحرمات ..

فليس معقولا – إذن – أن يتولى الرئيس السادات بشخصه إنتاج فيلم « موت أميرة » – كما اتهمه بعض شيوخ السعودية . فالرئيس السادات بعصمه من ذلك : أنه فلاح شرق مسلم .

ولم يكن الرئيس السادات قد رأى فيلم « موت أميرة » ، ولذلك طلب أن يراه فى الأسبوع الماضى . يقول الرئيس السادات : لقد شعرت بالتقزز والقرف ! فقد كان هذا الفيلم انتهاكا للحرمات ، واعتداء على قدسية الحياة العائلية ..

ويقول الرئيس السادات : إننى ماكنت أحب أن يشترك القانون المصريون فى هذا العمل الشائن الفاضح . إنها سقطة منهم ولاشك ! ..

ويقول أيضا : أما إذا كان خالد وعبد الله يريان انى رغم كل ذلك قد انتجت هذا الفيلم ، فليس عندى ما أقوله لهم غير أننى رجل أعرف دينى ، وأعرف معنى العيب ، وأحرص على اجتنابه ، وأطالب أبناء وطنى من المصريين أن يحترموا حريات الآخرين ، أن يضعوا الحدود بين الذى هو عيب والذى هو شرف . بل إننى ذهبت فى كراهيتى للعيب إلى أن دعوت الشعب إلى أن يقف حماية المجتمع المصرى من العيب ! ..

والرئيس يقصد الملك خالد والأمير عبد الله بن عبد العزيز والد الأميرة ما شاء الله ، التى يقال إنها أعدمت لأنها هربت مع أحد المواطنين السعوديين إلى لبنان . وفضحها جهاز كشف الأسلحة والمفرقعات . فقد نسيت وهى ترتدى ملابس شاب ، أن تنزع المشابك من رأسها ! ..

وليست مصر فى حاجة إلى مثل هذا الفيلم . فهناك حوادث كثيرة أقوى وأعنف من هذا الفيلم ، حدثت للإخوة العرب فى مصر وفى الخارج (مثلا زواج سعودية من فنان مسيحى ، ومحاولة السعودية خطف هذه الفتاة وإعادتها إلى جدة .. الخ) .. وكان من الممكن نشرها هى وغيرها !

ولكن هذه الاعتبارات الأخلاقية ، ولأن مصر لاتريد أن تضع أنفها فى الأحوال الداخلية للسعودية ، فقد مضى ذلك العهد حين كان العالم الغربى ينظر إلى المصرى على أنه الشخص القبيح الوجه ، لأنه يحقد على العرب ، ويريد أن يفسد عليهم حياتهم ، ويؤلب طبقاتهم بعضها على بعض .. ويقلب نظم الحكم فيها .. فهذه قضية لا نحب أن نكون طرفا فيها ، ولا نحب أن يكون أحد طرفا فى قضايانا أيضا ! ..

وقد وقع السعوديون فى غلطة صغيرة . فقد تصوروا أن الفلوس الكثيرة فى استطاعتها أن تحميهم . فلم تستطع كل شركات البترول الأمريكية أن تمنع عرض هذا الفيلم فى ١٥٦ محطة أمريكية .. ولم تستطع أموالهم أن تمنع عرضه فى بريطانيا – فقد اصطدمت الفلوس السعودية بالحريات المسموحة والممنوحة لوسائل الإعلام فى العالم الغربى ..

دولة واحدة فى العالم كانت أسرع فى تجاوز هذه الأزمة . هى السويد ، فقد تولت إحدى الشركات شراء حق عرض الفيلم فى السويد . ثم وضعت الفيلم فى إحدى خزائنها – حماية لمصالح السويد فى السعودية ! ..

وفى مصر يباع هذا الفيلم بخمسين جنيها ، وتشاهده بيوت كثيرة ، وأول من يشتريه من مصر : أشقاؤنا السعوديون . وقد بلغ عدد الكاسات المسجلة لهذا الفيلم ٦٥٠ تسجيلا ، كلها طارت إلى الخليج . وقد ألقى القبض على أحد المواطنين وهو يقوم بطبع هذا الفيلم وتسويقه مع أفلام أخرى محلة بالآداب العامة ! ..

٢

ولقد كان من شدة حرص الرئيس السادات على « مصارحة » الشعب المصرى وتحذيره أيضا . أن استغرقت القنبلة الطائفية

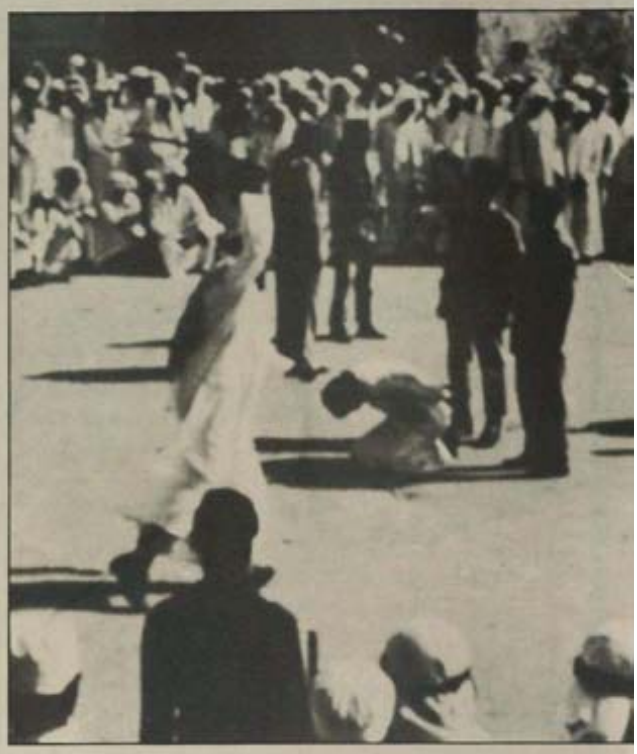

أكثر حديثه إلى الشعب . وبقدر ما كان هذا الجانب من الحديث طويلا . كانت راحة الناس أيضا . فقد حسم الرئيس السادات قضية ملأت النفوس بالضيق من أية محاولة لتزييف مصر التى عاشت متسامحة فى دينها وسياستها مع نفسها ومع غيرها ..

ويقول الرئيس السادات : إنه ليس من الحرية الدينية التى نصت عليها المادة ٤٦ من الدستور ، أن يثير عدد من المتعصبين الفتن الطائفية بصورة « دورية » – أى عندما تنتاب مصر محنة ، أو أقوم بالسفر إلى الخارج لحل أزمة وطنية أو قومية ..

وليس من حرية الدين أن يقوم فى مصر « فاتيكان قبطى » له سفراء فى الخارج،ويحكم دولة مسيحية معادية للدولة إسلامية . وبذلك تصبح مصر « لبنان » آخر . وإذا كان أحد يتمنى ذلك لمصر ، جهلا وسوء نية ، فلينظر إلى ما أصاب لبنان بسلاح أبنائها ! ..

ولا يستطيع أى قبطى فى مصر أن يقارن بين السعادة والراحة والتسامح الذى يعيشه الآن ، وبين أى وقت مضى – ولاداعى لأن نقلب المواجع والجروح فى عهود سابقة ! ..

ويقول الرئيس السادات : وليس من الحرية الدينية أن يتظاهر بعض خطباء المساجد بالشجاعة ، فيتطاولوا على القادة والحكام ، ويشتموهم بغير حق . لالشىء إلا لكى يحظوا بتصفيق العوام . ماأقسى هذه التضحية : إنهم يضحون بالحق والصدق وأمانة الدعوة ، من أجل أصوات تنطلق من أيدى الجهلاء ..

والقرآن الكريم يعلمنا آداب الوعظ والإرشاد . يقول تعالى : ﴿ ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى أحسن ﴾ ..

وفى الشريعة الإسلامية علماء كبار طالبوا بحماية المجتمع بالحجر على « القاضى الماجن والطبيب الجاهل والمقاول المختلس » ، وذلك حرصا على سلامة أرواح الناس وأبدانهم وأموالهم .

وليس من حرية الإيمان أن يتحول بعض العوام السذج إلى قادة وأمراء ، وتنقلب الأوضاع فى أيديهم ، فيصبح التلميذ الجاهل أستاذا لأستاذه العالم . ولايكتفى بذلك . بل إنه يقوم « بتكفير » العالم وتجريمه ثم القضاء عليه – كما حدث لفضيلة الشيخ الذهبى ! ..

وليس من الإسلام فى شىء أن يصبح مرضى العقول والنفوس هم هداة الأصحاء ، فيفرضوا عليهم ذوقهم المريض . ويحرموا الحلال . ويحلوا الحرام . فيكرهوا الموسيقى والغناء والشعر وكل الفنون ..

لقد اختلط عليهم الأمر عندما وجدوا أن القرآن ينفى عن الرسول عليه السلام أنه شاعر .. وأن القرآن الكريم من نظمه . فالقرآن وحى من الله إلى أكرم وأعظم مخلوقاته : محمد ﷺ ..

والقرآن يقول : ﴿ وما علمناه الشعر وما ينبغى له ﴾ . ﴿ وما هو بقول شاعر ﴾ فلماذا ليس النبى بشاعر ؟ ..

قال تعالى : ﴿ والشعراء يتبعهم الغاوون . ألم تر أنهم فى كل واد يهيمون . وأنهم يقولون مالايفعلون ﴾ ..

ولكن الرسول عليه السلام يقول : إن من البيان لسحرا .

والبيان هو الأدب والشعر والفنون الأخرى السامية . لأنها تسحر الإنسان وتمتعه ..

وقال الإمام حجة الإسلام الغزالى : « من لم يحركه الربيع وأزهاره ، والعود وأوتاره ، فهو فاسد المزاج ، ليس له علاج ! » ..

أى أن الذى « لاتحركه الأنغام فهو من الأنعام » .

وليس بين علماء المسلمين وفلاسفتهم من يرقى إلى مستوى العقل والذوق والإيمان الذى بلغه الإمام الغزالى . الذى وسع عقله كل العلوم فى زمانه ، والذى امتلأ وجدانه بكل تجارب الصوفية ! ..

وليس من الدين الإسلامى أو المسيحى أيضا ، من يؤسس جماعات ليس لها سند قانونى . وفى هذه الجماعات يتحول الناس الطيبون السذج ، باسم الفهم الزائف للدين ، إلى ببغاوات يكررون مايلقنون . فكأن هذه الجماعات قد جردت الإنسان من أعظم ماأعطاه الله : عقله .. ثم شحنته بالكراهية والحقد ، ليناصب العداء أروع ما خلق الله : الإنسان .. أخاه الإنسان فى الدين والوطن ! ..

وليس من الأمانة الدينية فى شىء ، أن تنتشر بين هذه الجماعات أفكار خاطئة مضللة . هذه الأفكار تجىء فى كتب مستوردة تقول للناس : إن الأرض ليست كروية ! ..

وتروى من جديد – مع الأسف – ماأعلنه الشيخ شخبوط شيخ أبو ظبى السابق عندما رأى الهلال ، فقال : مستحيل أن يهبط الإنسان على الهلال .. فلا يوجد به مكان .. ثم إنه لايستطيع أن يتشبث فى أطرافه المدببة ! ..

ويقول الرئيس السادات : وهذا لايعنى « التوازن » بين الأغلبية المسلمة وبين المسيحيين . فأنا حاكم مسلم لدولة مسلمة . وكل ماأريد هو المصارحة والإعذار . وقد أعذر من أنذر . وقد أنذر من أعذر أيضا ! ..

ويقول الرئيس السادات أيضا : ليس من الحرية الدينية هذا السباق فى بناء المساجد والكنائس ، بصورة غير مشروعة دون تخطيط سليم . ولكن لمجرد التظاهر أو الإثارة أو الاستفزاز ..

فالمسلمون يبنون مساجدهم أحيانا فى مناطق مكدسة بالمسيحيين .. والمسيحيون يحرصون على بناء كنائسهم فى مناطق مكدسة بالمسلمين . أو لا يكاد مسلم يبنى مسجدا حتى يسارع مسيحى ببناء كنيسة إلى جواره أو على مقربة منه ..

وليس من الإسلام ولا المسيحية إزعاج الناس بميكروفونات المساجد وأجراس

الكنائس .. فبين الناس : ناجون ومرضى وطلبة يذاكرون . فليس الدين صياحا ودويا . إنما الدين أسمى وأروع وأكثر رعاية للناس واحتراما لمشاعرهم .. والدين يسر ..

كما أن التعصب هو « عمى الألوان » المذهبية والدينية .. ولاتعصب فى الإسلام ، فالقرآن الكريم يقول : لكم دينكم ولى دين ..

وكان عمرو بن العاص يأمر ببناء الكنائس التى سبقت الفتح العربى لمصر . فهو الذى أنشأ كنيسة جديدة للقديس مكاريوس فى وادى النطرون . وهو الذى أقام كنيسة القديس مار مرقص – وهو راعى مدينة البندقية الذى نقلت رفاته أخيرا من الإسكندرية . وعمرو ابن العاص هو الذى أقام كنيسة حارة الروم ، فى مدينة الفسطاط ..

ولا نهاية للأمثلة على التسامح الإسلامى فى مصر ..

وفى الأيام الأخيرة بادر زعماء الكتائب اللبنانية بنى أن عددا من أقباط مصر قد حارب فى صفوفهم ، وتخز فى النفس ويعز علينا أن نقول : إن هذا التكذيب ليس صحيحا ..

فقد استطاعت لبنان بتمزقها وتخزيها وتناحرها ، أن تنقل عدواها إلى نفوس ضعيفة ممرورة فى مصر .. فتحمل السلاح فى وجه لبنان ، مشاركة فى هدمه – لأنها عجزت عن هدم مصر .. أمنا العزيزة علينا ، مسلمين ومسيحيين ! ..

٣ ثم « توقفت » المفاوضات بين مصر وإسرائيل وأمريكا .. ولم « تنقطع » .. فقد أعلن الرئيس السادات عن حاجته لإعادة الحساب والنظر إلى الوراء .. إلى بداية الطريق ، والتطلع إلى الأمام لاستجلاء الهدف ..

وقد كانت ولاتزال أمريكا طرفا ثالثا . ففى أيام كيسنجر جربت امريكا « دبلوماسية المكوك » – أى ذهابا وإيابا بين مصر وتل أبيب . والآن يجرب سول ليتوفتس « دبلوماسية الأساسير » صاعدا من الدور الثانى حيث الوفد الإسرائيلى ، إلى الدور الرابع حيث الوفد المصرى ، فى فندق أكاديا بمدينة هرتسلية . فهل كان فى استطاعة أمريكا أن تضغط أكثر ، أى أن تكون إيجابية أشد ؟ ..

نحن لا نعرف بوضوح . ولكن الشىء المؤكد أننا لم نتقدم كثيرا ..

وفى خطاب الرئيس السادات فى مجلس الشعب ، اتصل به الرئيس كارتر فى الاسماعيلية . واستغرقت المكالمة التليفونية نصف ساعة . شرح فيها الرئيس موقف مصر ، وتخوفه من أن يؤدى التعنت الإسرائيلى إلى إفساد خطوات السلام . وشرح له الرئيس الأمريكى وجهة نظره ، وأمله فى تذليل الصعوبات .

ووعده الرئيس السادات باستئناف المباحثات ، بعد أن تعلن مصر موقفها فى بيانها الذى أصدرته يوم الخميس الماضى ..

وفى هذا البيان حذرت مصر من المناورات السياسية فى إسرائيل ، وإثارتها العالم على المفاوضات نفسها ، وعلى موقف مصر .

وفى نفس الوقت احتفلت اسرائيل بمرور ١٣ عاما على إعلانها للقدس مدينة موحدة وعاصمة لإسرائيل – أى حسب التقاليد الدينية اليهودية ، فقد بلغت القدس سن الرشد ! ..

ثم بدأت المناورات الحزبية ..

فقد تقدمت السيدة جيولا كوهين عضو حزب « البعث الإسرائيلى » لاستصدار قرار من حديد ، بأن تكون القدس « عاصمة موحدة للدولة » – وعلى الرغم من أن هذا لايفيده كثيرا فى شىء . فإنها ماضية فى اتهام السيد بيجين بالخيانة لأنه ترك سيناء ، وغدا يترك الضفة والقدس ! ..

وقد أرسل الرئيس السادات رسالة إلى الرئيس كارتر بالموقف المصرى بمنتهى الموضوعية والدقة .. ورسالة أخرى إلى رئيس وزراء إسرائيل

ويوم الثلاثاء القادم فى واشنطن يلتقى د . مصطفى خليل نائب رئيس الحزب الوطنى الديمقراطى ، مع سول ليتوفتس المبعوث الأمريكى الخاص للشرق الأوسط . وسوف يعرض د . مصطفى خليل الموقف المصرى والمخاوف المصرية بالتفصيل ..

ويلاحظ الرئيس السادات أن العرب وإسرائيل قد التقوا أخيرا فى وجهة نظر واحدة ..

فالعرب الذين يحسنون الظن يقولون : كفى مصر ماحصلت عليه من أرضها ، ولتترك القضية الفلسطينية للدول العربية أو الدول الأوربية تجرب حظها ! ..

وهذا ينطبق مع الذى قاله السيد بيجين للرئيس السادات فى كامب دافيد . فقد قال له : لماذا توجع قلبك مع الفلسطينيين ؟ .. نحن نعرفهم أكثر منك . لماذا لا تشغل نفسك بالسلام مع إسرائيل ؟ .. وعلى بقية العرب أن يساهموا بالحل ، وذلك بالجلوس معنا ! ..

أى أن العرب وإسرائيل يريدون أن تكتفى مصر بالحل المنفرد .

أما العرب الذين يسيئون الظن فهم يقولون : إن توقف مفاوضات الحكم الذاتى كان متوقعا من قبل . فلماذا يهم مصر مادامت قد حصلت على أرضها ؟ .

أى أن مصر قررت منذ البداية أن يكون لها حل منفرد مع إسرائيل .

وينسى هؤلاء « سيئو النية » أن الرئيس السادات قد أعلن فى خطابه فى الكنيست ، أنه لم يأت لحل منفرد ، وأنه لم يأت لفك اشتباك ثالث .. وأنه ماجاء لسلام جزئى ، انما جاء من أجل السلام الشامل .. ولاسلام شاملا دون حل للقضية الفلسطينية ! ..

وردا على تصريحات السيد بيجين بأنه ليس فى إمكانه ان يقدم أكثر .. وردا على تهديدات السيد شارون بتوسيع المستوطنات ، وماأعلنه فى محادثات هرتسلية ، من أن لدى إسرائيل برنامجا لثلاثين عاما قادمة لبناء مستوطنات جديدة ، وردا على المناورات البرلمانية ، وتقديرا لما قاله السفير الأمريكى سول ليتوفيتس من « أن المسافة بين الطرفين واسعة ، حتى ليخاف الإنسان أن يتمشى بينهما ، دون مغامرة خطيرة » – هذه الملابسات التى ضاعفت من الخوف والشك واليأس عند الملايين التى تحلم بالسلام ، كان لابد من التحذير من نتائج التعنت الإسرائيلى .

وكل شىء يدل على أن طريق السلام صعب ، كانت فيه مصاعب ، وسوف تبق ، ولكن بالأمل والإصرار وصدق النية والحوار ، لابد أن نجد طريقا ، ولنا فى موسى عليه السلام قدوة حسنة . فقد كان يشعل النار ليلا ليرى ، ويرفع الدخان عمودا نهارا ليهتدى ..

انتهى الزمن الذى نتفرج فيه على مشاكلنا نكبر دون حل ، وجاء الزمن الذى نقترب فيه من المشاكل لنراها أوضح ، تمهيدا لحلها .. ولابد من استئناف المفاوضات ، طريقا إلى الحل .. ■

أنيس منصور